

(خير جليس ..) كتاب !!

ربحان رمضان

تيسير ميرخان فاشتريته بعدما تصفحته ، وفرات بسرعة مقدمته التي ورد فيها أن أرض كردستان قسمت بين أربعة دول هي تركيا - إيران - العراق وسوريا ، ولكن ولما وصلت إلى البيت وتصفحته مجدداً وبرؤية فوجئت بأن أقسام الكتاب خالية من ذكر كردستان سوريا ، أو من ذكر الشعب الكردي في سوريا ، فاتصلت مباشرة بدار الفكر صاحبة حق النشر والتوزيع لأسأل عن عنوان الأستاذ محمد تيسير ميرخان فأعطتني الأنسة السكرتيرة رقم هاتف ابنه الذي يعمل في نفس الدار والذي أعطاني بدوره رقم هاتف والده الأستاذ محمد تيسير ميرخان.

اتصلت بالأستاذ ميرخان وشكرته على جهده في إصدار الكتاب ، وطلبت منه موعداً لقاء به ، واتفقنا على موعد محدد في بيته الواقع في مدينة الزبداني. استقبلني الرجل برحابة صدر ، فقدمت له نفسي ولأنه من أكراد حي الأكراد في مدينة دمشق عرف والدي ، وعائلتي ، وأشد برابطة كاوا الثقافية التي لم تقصر في سعيها لإحياء الثقافة ، وتدوين التاريخ الكرديين.

وأعارني مخطوطة لقصة كتبها تدور وعلى ما أذكر حول شاب اسمه عاصم ينتقل من مدينته دمشق إلى مدينة اللاذقية ليعمل في مجال الأمن العام ، وهناك يقع في هوى ابنة الجيران .. إلخ ، وذلك لعرضها على العاملين في رابطة كاوا وطلب مني أن لا أقوم بتصوير المخطوطة فوفيت بوعدي ولم أصورها ، وعرضتها على إحدى دور النشر ولأنها قصة رومانسية اعتذروا عن طباعتها بحجة أن طباعتها مكلفة وربحها مغامرة!!

لما كانت المكتبة الكردية تفتقر إلى الكتب التي تعني بالشأن الكردي تاريخاً وأدباً وفن ، فقد دأبت رابطة كاوا للثقافة الكردية والحضارات الشرقية ، والتي كان مركزها بيروت في لبنان على إصدار كنوز الكتب بالعشرات ، واستطاعت ويفضل التعاون بينها وبين حزب الاتحاد الشعبي الكردي أن تؤمن وصول تلك الكتب للقارئ في سوريا رغم كل محاولات النظام من التعتيم على القضية الكردية ومنعه من بيع تلك الكتب علناً ، واضطر الرفاق في حزب الاتحاد الشعبي الكردي " ر غم محاربتهم لكل ما يسمى تهريباً ، ومهربين " أن يتبعوا طرق التهريب الغير مشروعة ، ويركبوا المخاطر ليصل الكتاب (الخير جليس) للقارئ ، يقرأه بأمان!! ..

وفي الكثير من الأحيان كانت تساعدنا (مشكورة) بعض المنظمات الفلسطينية إيماناً منها بعدالة قضية الشعب الكردي المغبون عبر عصور التاريخ ، فتنقل لنا وبواسطة عربات النقل الخاصة بها مئات من الخير جليس ..

إزاء ذلك هل يمكن لنا أن نقارن تلك الجهود بردّ فعل المتلقي ؟

كم من الكتب ضاعت على الحدود بين سوريا ولبنان ، وكم من الكتب أكل ثمنها من قبل القارئ ، ومن قبل القائمين على عملية النشر والتوزيع ، وكم ، وكم ؟!! قبل ثلاث سنوات سافرت إلى دمشق للإطمئنان على حالة والدتي الصحية التي ساءت كثيراً في أيامها الأخيرة (رحمها الله) فحظيت في إحدى مكتباتها بكتاب للكاتب الفرنسي (بوريس ..) وترجمة الأستاذ نحمد

والمهاجرون الأكراد (الخير جليس) فلم تردني كلمة
شكر واحدة !!

-من أجل طباعة كتاب (تعليم اللغة الكردية بدون
معلم) للمرحوم محمد برزنجي قضينا أكثر من ست
ساعات مشياً على الأقدام بين الحدود السورية -
اللبنانية (المرحوم برزنجي وأنا) حتى وصلنا قرية
جب جنين ومن هناك أخذنا سيارة عمومي لتقلنا إلى
بيروت حيث اتفق البرزنجي مع أمين عام الحزب السابق
الأستاذ "صلاح بدر الدين" على طباعته، فبقي
برزنجي في الجمعية واستقلت سيارة العودة ورجعت
إلى دمشق كما غادرتها عبر تلك المسالك الوعرة، وبعد
أن صدر الكتاب أوصلناه إلى سوريا، فبيع قسم قليل،
وقسم اشترته فيما بعد من دار النشر التي طبعته
(دار الكاتب) فضاع حوالي 1200 نسخة مع المهرب
على الحدود.

لقد طلب مني المرحوم الأستاذ محمد برزنجي يومها
مساعدتي في طبع الكتاب فما كان مني إلا أن عرضت
الموضوع على الأستاذ صلاح بدر الدين الذي تبناه
مباشرة وطلب مني إحضار الكاتب إلى بيروت ليشرح
شخصياً على طبعه، ولما حضر الأستاذ برزنجي إلى
بيروت (كما أسلفت) أقام في الجمعية الثقافية الكردية
الواقعة في الزيدانية - رمل الظريف مدة شهر ونصف
تقريباً حتى أكمل مشروع الطباعة، فقام بتدقيق
الكتاب الذي صدر باسم الجمعية الثقافية الاجتماعية
الكردية التي أسسها الأستاذ "صلاح بدر الدين"
كشقيقة توأم لرابطة كواوالثقافة الكردية وأصدرت
مجلة - ريبير - باللغة الكردية بإشراف الراحل ملا
ظاهر ملا حامد والتي أدارها في وقت محدد الأستاذ
أحمد شريف أحد مسؤولي منظمة الاتحاد الشعبي في
لبنان التي كانت تصدر بدورها مجلة - روهلات -
الشهرية بالعربية والكردية كمنبر سياسي يعبر عن
واقع واهداف الحركة التحررية الكردية (صدر منها
حوالي المائة عدد) ..

-في عام 1984 وأثناء معارك جبل لبنان استشهد

وقبل أن يتم عرضها على الرابطة طلب مني إعادتها،
فأعدتها إليه سالمة، في لقاءنا ولأول مرة وسألته السؤال
الذي حيرني: "كيف ورد في مقدمة الكاتب تعريف
كردستان بأنها أرض الكرد المقسمة بين أربعة دول، ثم
خلا الكتاب من هذه المعلومة، هل جرت ضغوطاً
أمنية على المترجم فلم يوردها؟ أم أن الكاتب نفسه لم
يتطرق إلى هذا الموضوع؟
فأجابني الأستاذ ميرخان أن التقصير ليس منه، وأن
الكاتب نفسه لم يتطرق إلى وجود أرض كردية في
سوريا ضمن فصول الكتاب.
كان الأستاذ ميرخان هادئاً في حديثه، بالغ التعبير،
ذكر لي يومها شيئاً عن حياته الثمانينية، وعن
تجربته في الكتابة، وعن عشقه لزوجته الذي ح له إلى
قصة مكتوبة.

ذكر في حديثه كسل شعوب الشرق الثقافي، أخبرني عن
قصة قام بترجمتها، كانت بعنوان (حب في زجاجة)
قال لي أنها بيعت بشكل كبير في فرنسا حيث طبع
ووزع وبيع 260 ألف نسخة منها!! ..
تذكرت قراءنا الأكراد، وكتبنا التي جاهدنا في سبيل
إصدارها وطبعها ونشرها، و تهريبها ..
لقد كانت ميزانية الرابطة وعلى الدوام خاسرة لأن
القارئ في بلدنا قليل، وقارئ كتبنا كان ينتمي غالباً
إلى فئات العمال والفلاحين الذين كانوا عماد الحزب
وجماهيره، فبياع الكتاب بالتقسيط وبالدين، حتى
أنه وفي بعض الأحيان لا يدفع ثمنه إما لأن القارئ فقير
(فحزبنا حزب العمال والفلاحين)، أو لأننا كنا نهديه
كهدية ثمينة، كيف لا وهو ال (خير جليس؟؟!!)

-ديوان باهوز الشعري للمرحوم مؤسس البارتي
الديمقراطي الكردي في سوريا الأستاذ "عثمان صبري"
قام بطبعه الأستاذ قاسم درباس أحد تلامذته
وتعهدت بتكاليف نصف الطباعة وينشر الكتاب. ولكن
وللأسف لم يباع منه (وفي وقت كان فيه وجود الكتاب
الكردي نادروبباع بسعر رمزي هو ثلاث ليرات سورية
) إلا أعداد قليلة اضطرت بعدها إلى إرسال أعداد هائلة
بدون مقابل مالي وعن طريق الأستاذ حيدر عماشة
أحد المهتمين بالشأن الثقافي إلى أوروبا ليقرأ المنفيون

رفيق سابق لنا هو الشهيد محمد أمين شاهين (الياس) فجاءني أخويه طالبين مني التدخل لدى قيادة الجبهة الشعبية (القيادة العامة) التي التحق بها الشهيد الياس بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان واستشهد في موقعة استشهادية بمدينة عرمون لنقله من مقبرة الشهداء بدمشق إلى قريته (مقتلة) التابعة لمدينة كوبانية (عين العرب) شمال حلب فالتقيت بالأستاذ حيدر عماشة في مكتب الأستاذ طلال ناجي الأمين العام المساعد للجبهة أو أبلغني الأستاذ حيدر بأنه شريك في دار الكاتب التي أصدرت عشرات الكتب الكردية فأطمننت له ، وقمت بتعارفه على أعضاء الرابطة الثلاثة (باقي نازي ، كدر ، وولاتو) فحاولوا بيعه أربعة مخطوطات كانت عناوينها وعلى ماأذكر (الدوامة أو الفارس الوحيد - وكتاب شعر للشاعر الخالد أحمد خاني ، ورجال وسلاح للكاتب الانكليزي جيمس أولدرج "منقحة ومعدلة" ومخطوطة رابعة لم أعد أذكر اسمها بمبلغ أحد عشر ألف ليرة سورية أي ما يعادل ألف دولار أميركي في تلك الأيام . وفي تلك الفترة بالذات اشترت مجموعة كتاب (تعليم الكردية بدون معلم

طلب مني المرحوم الأستاذ محمد برزنجي مساعدتي في طبع كتابه (تعلم الكردية . وفي هذا العام وبالصدفة عثرت في مكتبة دمشقية على نفس الكتاب ولكن باسم دار نشر أخرى هي (دار الينابيع (مع ملاحظة كتبت بالخط العريض " حقوق الطبع محفوظة لمكتبة ريزان - المالكية" مما أثار دهشتي لأول وهلة من رؤيتي للعنوان والكاتب ، والناشر ، ولما استفسرت عن الموضوع وتساءلت عن عدم الاستئذان من الناشر قيل لي بأن الناشر الجديد إستاندن من أخ المرحوم برزنجي (أخي وصديقي) الأستاذ أحمد برزنجي وتمت طباعته!! .. (الدانمرك - منذ عشرين عام اشترت وبشهادة السيد مصطفى عثمان الموجود حالياً في (من الدكتور باقي نازي ، والدكتور سعيد النجاري ، والأستاذ ولاتو عمر مجموعة مخطوطات كانت عناوينها وعلى ماأذكر (الدوامة أو الفارس الوحيد - وكتاب شعر للشاعر الخالد أحمد خاني ، ورجال وسلاح للكاتب الانكليزي

خاضعة لعمليتي العرض والطلب التجاريين بعد أن كان أيقونة تعلق في صدر كل بيت في مكتبة أو على رف يتباهى أصحابه بامتلاكه ويتبارون في امتلاكه. أخرى لهذا الخير جليس أن تمتلكه كل شعوب الأرض إلا شعوبنا شعوب الشرق التي عافت الخير الجليس والتفتت إلى جمع المال وتحسين الحال .. لأن مفاهيمنا حول المعرفة والثقافة والأدب أصبحت مفاهيم بالية يجب تخطيها إلى مفاهيم جديدة لم يفهما غالبية أبناء جبلي الذي يعادل عمره (أو أكثر بقليل) عمر حركتنا الكردية في الجزء الغربي من كردستان .

والذين يملكون مكتبات خاصة في بيوتهم معدودون على الأصابع .. منذ ذلك التاريخ لاتزال غالب الكتب موجودة عندي (محفوزة) في قبو البناء تحت الأرض !!
.. للأسف وأقولها بألم وحسرة : " نحن أميون " لانحب أن نتعلم رغم كل التجارب التي مرت على شعبنا ، لم نتعلم بعد ونرى الأوربي يصطحب كتابه إلى المعمل الذي يعمل به ، يقرأه في سفره بالقطار ، على الشواطئ وأماكن الاصطياف ..
ومن المؤسف أن يصبح هذا الجليس – الأنيس بضاعة